

الأيدي الناعمة لقاء الفكر والفن

وسط مجموعة هزيلة من العروض المسرحية التي اصطلح على تسميتها بعروض الصيف ، وكأن للصيف عروضاً وللشتاء عروضاً ، وأغلبها حتى الآن هزيلة فاترة تضحى بالفكر من أجل الفن فلا تحقق شيئاً من الاثنين . تنبثق هذه المسرحية « الأيدي الناعمة » عملاً ممتازاً ومتميزاً على المستويين معاً . (الفكر والفن) . وسواء كان تخطيطاً أو مصادفة ، فإن عرض هذه المسرحية بالذات في هذه الأيام ينطوي على أكثر من دلالة ، فهي أول مسرحية يكتبها « توفيق الحكيم » بعد الثورة . ومن هنا نجى أهمية عرضها في الاحتفال العشرينى لثورة ٢٣ يوليو . وهي المسرحية التي تشكل موجة جديدة في تيار (المسرح الحكيم) ، تلك التي حاول فيها أن يزاوج بين الفكر والفن ، وأن يجسد أفكاره تجسداً درامياً حقيقياً . ثم هي بعد هذا وذاك المسرحية التي كانت بداية لسلسلة من المسرحيات الأكثر نضجاً والأشد تطوراً ، مثل : الصفقة ، والورطة ، والسلطان الخائر ، وشمس النهار ، والطعام لكل فم . . . وأخيراً المسرحية التي يتم فيها لقاء القمة ، حيث يلتقي العميدان . « توفيق الحكيم » عميد الفكر المسرحي ، « ويوسف وهبي » عميد الفن التمثيلي .

كتب «توليق الحكيم» (الأيدى الناعمة) عام ١٩٥٤ ، أى بعد عامين من قيام الثورة ، وكانت الأشكال القديمة قد تهرأت ، والمضامين التقليدية قد بادت ، وكانت قد طفت فوق سطح حياتنا الاجتماعية مطالب جديدة ورؤى مغايرة ، تحتم معها على الفنان أن يعيد النظر فى كل شىء ، وأن يطلق على الأشياء أسماء جديدة . وكان (العمل) من حيث هو قيمة ومن حيث هو شرف ومن حيث هو حياة ، من أهم القضايا التى عنت بها الثورة ، خاصة بعد أن ألغيت الرتب والألقاب ، وتحطمت أسطورة الفروق الطبقية ، وظهرت فئة المتعطلين بالوراثة عبئاً ثقيلاً على الدولة والمجتمع .

وهذا ما عبر عنه بائع الذرة ، فى هذه المسرحية بقوله ، وهو يخاطب الأمير السابق العاطل بالوراثة :

البائع : «العلم عندنا بلا قافية هو الشغل .. تفضل كوزك ... اصبر أغلفه لك بورقه الأخضر حتى لا يحرق أصابعك .. عندنا لا نعرف العالم ولا الجاهل ... الناس عندنا إما عامل وإما عاطل ... إما نافع يشغل ويعرق ويفيد نفسه وغيره .. وإما صايع من غير مؤاخذه لا شغلة ولا مشغلة تنفعه وتنفع الناس ... وهذا فى عرفنا يا أولاد البلد لا يعتبر أنه رجل .. »

أما الدكتور الجامعى ، العاطل بالشهادة ، لحرصه على العلم النظرى المجرد ، دون التطبيق العملى المثمر فى واقع الحياة ، فإنه يتابع تأملاته شارداً الدهن :

الدكتور : ... ما الذى يجب أن يخدم الآخر؟ .. العمل هو الذى يخدم العلم؟ ... أو العلم هو الذى يخدم العمل؟ .. العمل؟ هل العلم

شيء منعزل عن العمل ؟ وماذا يصنع عندئذ للناس ؟ . . . وما قيمته
في الحياة وما معناه ؟ . . .

من هنا اتخذ « توفيق الحكيم » من موضوع (العمل) في علاقته بالعلم من
ناحية . وفي علاقته بالحب من ناحية أخرى ، وفي علاقته بالحرية من ناحية
أخيرة ، ركيزة محورية تدور حولها الشخصيات والمواقف والأحداث ، فالعلم هو
العمل وحروفها واحدة .

والفرق بينها مجرد اختلاف يسير في موضع اللام والميم ، ضاع الميم قبل اللام
أو بعدها ، يصبح أحدهما هو الآخر .

والعلم الذي لا يؤدي إلى تطوير المجتمع لا قيمة له على الإطلاق ، والحب هو
العمل ، لأن الحب الذي لا يترجم إلى حياة زوجية شريفة يصبح كلاماً فارغاً من
المعنى ، والحرية هي العمل ، لأن الحرية تتحول إلى ضدها ، إلى الفوضى ، لو لم
يترتب عليها نتائج إيجابية في الحياة .

وهذا ما عبرت عنه إحدى بطلات هذه المسرحية ، بقولها وهي تخاطب أباهـا
الأمير العاقل بالورثة ، والذي يحتقر (العمل) أى عمل ، لأن العمل في نظره
لا يكون إلا للخدم والعبيد .

مرفت : العمل هو الحرية ، لقد تعلمت أشياء كثيرة منذ عشت مع زوجي
« سالم » ، شعرت أني إنسانة تعيش حقاً منذ بدأت يداي
تعملان . . . شعرت أني بدأت أنطلق من سجن الفراغ . . . لست
أدرى كيف تطيق الحياة بغير عمل يا أبي . . . إنني أرتي لك !! «
ويعود الكاتب لكي يقارن بين العمالة والبطالة ، وكيف أن العمل هو سر
الحياة ، والبطالة هي سر البلاء ، لأنها تكاد تكون مرادفة للموت ، فهي هو يقول

على لسان أحد أبطاله ، عن البطالة :

عبد السلام : بل هو البلاء الأكبر . . . وسلى أنا . . . إن البطالة هي المرض الذى يهدم كيان الإنسان . . . جسماً وروحاً . . . إلى منذ تقاعدت وأنا أرى الغد كأنه فاتح فمه ليتلقفنى . . . لقد بدأت حياتى قراض تذاكر . . . وتركت الخدمة وأنا ناظر محطة . . . ما من يوم توعكت أو أخذت إجازة مرضية . . . كنت أسير بصحى كالقطار نفسه ، وكانت أيامى تجرى كأعمدة التلغراف . . . التى تمر أمامى من نافذة القطار السريع . . . متشابهة حقاً ولكنها غير ممتلئة . . . أما الآن فأيامى جامدة هامة . . . لأنى أصبحت كالقطار القديم الذى تركوه ليأكله الصدا .

وهكذا يعمد الكاتب فى المسرحية إلى ثلاث شخصيات رئيسية ، « البرنس فريد » الأمير السابق ، العاطل بالوراثة ، الذى يحتقر العمل ، ويفضل عليه الإفلام حتى تظل يداه ناعمتين ، وعندما ترتبط ابنته « ميرفت » بأحد العمال الكادحين يطردها من السراى . وبرغم نجاح هذا العامل وتخرجه فى كلية الهندسة ورياسته لإحدى الشركات ، يظل الأمير يناصبه هو وابنته العدا ، رافضاً كل معونة تقدم له من خلألهما . ويلتقى الأمير بالدكتور « على حموده » الحاصل على الدكتوراه فى علم النحو ، ولكنه عاطل بالشهادة ، لأنه إما أن يعمل فى تخصصه أولاً يعمل على الإطلاق . وتنشأ بين الاثنين صداقة من نوع غريب . صداقة يغذيها الإحساس بالبطالة ، واحتقار العمل اليدوى ، والتحرر من المسؤولية داخل مجتمع كل من فيه مشول . إلا أنها لهذا أو على الرغم من هذا يشككان ثنائياً فكاهياً يضئ على المسرحية طابعها الكوميدي سواء فى محاولتهما الكاريكاتيرية للبحث عن

عمل ، أوفى رغبتهما المضحكة للزواج ، زواج الدكتور من « جيهان » ابنة الأمير ، وزواج الأمير من « كريمة » أخت « سالم » ، سالم العامل الميكانيكى الذى حقق كل هذا النجاح ، وأصبح بيده زمام الموقف بعد أن تزوج « ميرفت » وعاشت معه أختها « جيهان » ويكون الشرط الأساسى الذى يشترطه عليهما للزواج هو « العمل » أن يعمل كل منهما أى عمل حتى يكون جديراً بالحياة .

وهذا هو المعنى الذى قصد إليه الكاتب قرب نهاية المسرحية ، والذى جسده فى كلمات على لسان « سالم » ، العامل الثورى التقدمى ، رمز ميلاد الإنسان الجديد :

سالم : لكل عصر « هارونه الرشيد » . . . و « هارون رشيد » هذا العصر هو الصناعة الكبرى . . هو الإنتاج العام . . هو الثروة القومية التى يجب أن تتكفل بإنتاج الذهن الذى يمثل الحضارة . . هذا يحدث فى كل بلد غنى . . حينما وجد الثراء وجد العلماء . . وقلما نجد بلداً فقيراً خاملاً غير منتج يعيش فيه علم أو علماء . . حتى ولا فى النحو . . وهل تتصور « سيويه » يعيش بنحوه فقط فى صحراء جرداء ؟ .

عبد السلام : مستحيل . .

سالم : يجب أن يكون هناك منتج للثورة ليكون هناك عمل منتج للذهن . . يجب أن تكون هناك أيد خشنة حتى يمكن أن توجد إلى جانبها الأيدى الناعمة .

وتنتهى المسرحية بنهاية من تلك النهايات السعيدة المألوفة ، حيث يتلقى الدكتور خطاباً من الوزارة يفيد إنصافه وإخافه بالتدريس الجامعى ، ومن بعده يتلقى الأمير خطاباً يفيد كسبه لقضية العشرة أفدنة التى كان يطالب بها .

وعلى هذه النهاية التى يتم فيها ربط الحب بالعمل ، وعلى هذا الحوار الذى يدور

بين « سالم » اليد الخشنة العاملة ، وبين الأمير العاطل بالوراثة ، إحدى اليدين
الناعمتين ، والدكتور العاطل بالشهادة ، أو اليد الأخرى الناعمة ، تنتهى
المسرحية :

سالم : هل تعرف العمل ؟

البرنس : أبداً . . .

سالم : هل تعرف الحب ؟

البرنس : (فى دهشة) الحب ؟

سالم : نعم . . الحب . . هل تعرفه ؟

البرنس : طبعاً . . هذا معروف . .

سالم : إذن فقد عرفت العمل .

البرنس : وما هى العلاقة ؟

سالم : العمل هو الحب . . هو الهوى . . هو الهواية . . الحب والهوى

والهواية . . أظنها فى اللغة مترادفات . . أليس كذلك يا دكتور ؟

الدكتور : بالضبط

سالم : كل عمل حق . . كل عمل منتج ، هو وليد حب أو هوى

أو هواية !

ولو أن النهاية نبتت من داخل الحدث ، أعنى من التحاق كل منها بعمل أى
عمل ، لكان ذلك أفضل من الناحية الدرامية ، ولتحاشى الكاتب من الناحية
الفكرية وقوف المسرحية فى صف (البورجوازية) الوطنية ، بدلاً من التطور الذى
يجب على أساس ملكية الشعب لوسائل الإنتاج .

• • •

عموماً : استطاع الإخراج أن يحدد هذا الفكر المسرحي سواء في خطوطه الرئيسية أو في تفصيلاته الجزئية ، وبخاصة مشهد بائع الذرة الذى لقن الأمير والدكتور درساً في أن العلم هو العمل ، ومشهد صاحب المطعم المتجول الذى لقنها أن العمل هو الحياة ، ومشهد الاجتماع العائلى الذى لقنها فيه « سالم » أن الحب هو العمل ، هذا بالإضافة إلى مشاهد أخرى كثيرة مثل مضارب البورصة الذى جاء ليستأجر السراى ، والمخرج السيمالى الذى جاء لتصوير أحد الأدوار .

ولو أن الإخراج تخفف قليلاً من الواقعية الجامدة سواء في خطوط الديكور أو في قطع الإكسوار أو في تصميم الملابس أو حتى في الموسيقى التصويرية ذات اللون الشعبى القاقع . . ولو أنه تخفف كثيراً من الإطار التقليدى المحكم سواء في تقسيم المسرحية إلى أربعة فصول على طريقة « راسين وهولير » ، أو في الحركة السيمترية للشخصيات ، فضلاً عن البناء المهارى للمواقف ، لمساعد هذا كله على إبراز ما فى المسرحية من شفافية التفكير ورشاقة التعبير وخفة الظل في شكلها ومضمونها جميعاً .

ولكن يبدو أن اهتمام « يوسف وهبى » بالأداء التمثيلى كان على حساب الإخراج المسرحى ، فقد وفق تماماً في توزيع أدوار هذه المسرحية على صفوف ممتازة من ممثلى المسرح القومى بينهم « محمد السبع » بحضوره المسرحى وتمكنه الأدائى وصوته الفياض بالتعبير ، ثم « صبرى عبد العزيز » بخفة ظلة وقدرته على التشكل التمثيلى داخل أكثر من لون في الدور الواحد ، ثم « نادية السبع » التى تعود إلى المسرح برصيد من الخبرة المسرحية والتمرس التمثيلى يمكنها من التميز فوق المسرح ، ثم « قسمت شيرين » برغبها التمثيلية ورشاقها التشكيلية اللتين تؤهلانها إلى الوقوف طويلاً وكثيراً فوق المسرح . .

وأخيراً يحيى « يوسف وهبى » عملاقاً فى أدائه التمثيلى ، يلقى بإشعاعاته الصوتية والحركية التى تتمدد فوق خشبة المسرح لتشيع فى جو الصالة كلها ، أن هذا العمل « الأبدى الناعمة » جدير بأن يعرض أكثر من أسبوع ، حتى تتمكن الأجيال الجديدة من الاطلاع على هذا العميد لفن المسرح .